1/4

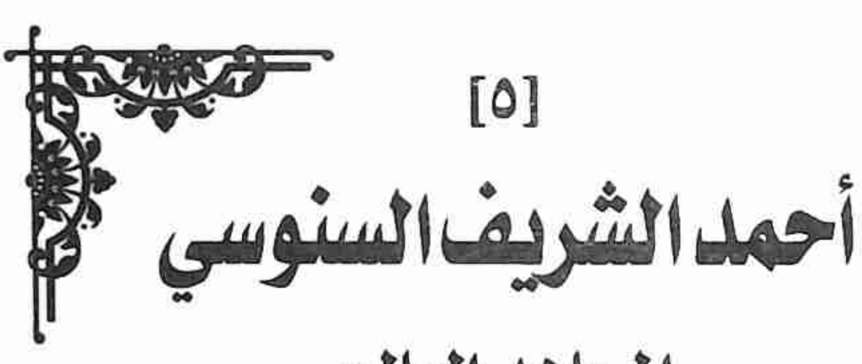
مُجاهِدون مَنسيُّون

في التاريخ الحديث

د / محمد بن موسى الشريف

المشرف على موقع التاريخ





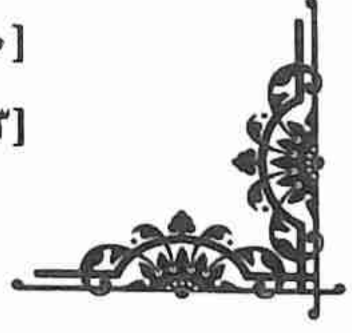
[٥]

أحمد الشريف السنوسي

المجاهد العالم

[١٢٩٠-١٣٥١]

[١٨٧٣-١٩٣٣]



المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ٢/١

لقد كان للحركة السنوسية آثار جليلة في ليبيا وبعض بلدان إفريقيا السوداء، وكان لرجالها عمل جليل، ويكفي أن منهم عمر المختار، الذي وقف ببطولة فائقة في وجه جيوش إيطاليا الصليبية، وأثبت أبطال السنوسية أن في بلاد الإسلام رجالاً لا يقبلون الضيم، ولا يرضون بالهوان، ومن هؤلاء السنوسيين البطل المجاهد أحمد الشريف السنوسي أكبر وأقوى شخصية ليبية يوم نزل الإيطاليون بليبيا، والزعيم الثالث للحركة السنوسية بعد جده المؤسس وعمه محمد المهدي، كما سيأتي ذكر ذلك قريبًا، إن شاء الله تعالى.

ولد سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م في واحة الجغبوب في ليبيا، وهي واقعة جنوب شرق طبرق متاخمة للحدود المصرية بالقرب من واحة سيوة، وحفظ القرآن في سن مبكرة، ودرس على مشايخ عديدين، منهم جده لأمه عمران بن بركة الفيتوري، ومنهم عمه السيد محمد المهدي السنوسي زعيم السنوسية، وقد لازمه طويلاً وهو الذي ابتدأ بتحفيظه القرآن، منهم: أبوه العالم محمد الشريف السنوسي، وجده إمام السنوسيين محمد بن علي السنوسي، وهو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وعمه العالم الداعية محمد المهدي السنوسي، هو الذي كان خليفة أبيه الإمام محمد بن علي السنوسي في زعامة السنوسيين، وبقي في الزعامة أربعًا وأربعين سنة، وأعلن تبعيته للدولة العثمانية، ثم اتخذ قرارًا بنقل العاصمة من الجغبوب إلى الكفرة لينأى بنفسه وجماعته عن الضغوط الأوربية عليه، وشكواها المتكررة للسلطان العثماني وطلبها سحب المهدي إلى إستانبول لتخلو لها إفريقيا السوداء، فلم يجد المهدي بدًا من الانتقال إلى الكفرة، وأشرف السيد أحمد على انتقال قافلة السنوسيين البالغة ٢٦٠٠ شخصًا من الجغبوب إلى الكفرة في رحلة طويلة.

ثم في سنة ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م تحول المهدي إلى «غرو» في تشاد، وكان ذلك تحولاً

تاريخيًا من أجل الدعوة إلى الله تعالى، ورافقه ابن أخيه السيد أحمد الشريف، لكنه فوجئ بتقدم فرنسا، فرأى أنه لا يمكن النأي بنفسه وجماعته عما يجري فقرر الدخول في معركة ضد فرنسا وكبدها خسائر كبيرة، وأظهر السيد أحمد بطولات وشجاعة نادرة في جهاده ضد الفرنسيين.

فلما شعر محمد المهدي بدنو أجله رأى أن ولده إدريس - الذي صار ملك ليبيا بعد ذلك، وثار عليه الهالك القذافي ثورته المشؤومة - لا زال صغيرًا ولا يصلح للزعامة، فعهد بخلافة السنوسيين إلى ابن أخيه أحمد الشريف السنوسي؛ لما رأى فيه من قدرة وكفاية ولحسن بلائه في جهاد الفرنسيين في الصحراء، وقد كان أول من دعا في ليبيا لجهادهم، وعُقد اجتماع في الكفرة مقر الزاوية السنوسية الرئيسة سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، واختير أحمد الشريف السنوسي اختيارًا عامًا من مشايخ الزوايا السنوسية بعد محمد المهدي السنوسي الذي توفي في «غرو» بتشاد، ونقل جثمانه إلى الكفرة ودفن فيها.

ثم بعد ذلك تسلم السيد أحمد الشريف زعامة السنوسيين، وجعل الكفرة عاصمة بلاده.

جهاده ضد فرنسا:

واصل السيد أحمد الشريف جهاده ضد الفرنسيين الذين جاهدهم من قبل في زمن عمه، وألف كتابًا يحث فيه أتباعه على الجهاد واسمه «**بُغية المساعد في أحكام المجاهد**»، واتصل بسلطان دارفور علي دينار، وبسلطان واداي - في تشاد اليوم - داود مُرّة، وببعض مريديه في مصر، وذلك لعمل جبهة إفريقية إسلامية للجهاد ضد المستخرب الفرنسي، لكن ذلك لم يتم.

وبايعه آلاف الليبيين على الجهاد في سبيل الله.

وكان الفرنسيون يتقدمون من جهة الجنوب يريدون احتلال ليبيا التي كانت اسمًا تحت الخلافة العثمانية التي بلغت من الضعف مبلغًا كبيرًا، لكنها أمدت الشريف ببعض

الأسلحة، وحاول السيد أن يوقف الفرنسيين من التقدم إلى الكُفرة برفع العلم العثماني عليها لكن جاء الاحتلال الإيطالي لطرابلس ليوقف الزحف الفرنسي.

وكان يبذل ماله وجهده لإمداد المجاهدين بالسلاح، ويشجع التجار على جلب السلاح للمجاهدين، واشتهر قوله: «ليس عندي صديق أعز ممن يساعدني بالسلاح».

وكان يتحرق شوقًا للسلاح؛ لأنه قليل في ليبيا آنذاك حتى أُثر عنه القول: «ليس في هذه الدنيا أعز لدينا من السلاح والكتب؛ بالسلاح نهزم عدونا وعدوكم، وبالكتب يزداد علمنا، وهما أحرص ما يحرص عليه المسلمون».

وقال أيضًا: «إننا نحتاج إلى الأسلحة أكثر من أي شيء آخر».

وقد كان يحث التجار على السفر إلى السودان - أي: بلاد السودان مثل تشاد وليس المراد السودان بحدوده المعروفة الآن - ليبيعوا السلاح هنالك، ويقول لهم: إنها من أربح التجارة.

وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وكاتبهم مرةً في سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، وطلب منهم أن يبعثوا له بألف وخمسمائة بندقية من حسابه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين في السودان.

ومن شدة اهتمامه بأمر السلاح وتتبعه لمصادره فإنه - كما ذكر الأستاذ عبدالرحمن عزام أول رئيس للجامعة العربية - انتقل بنفسه إلى شرق سرْت، وهي مدينة ليبية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأقام على شاطئ البحر في منطقة سلطان ليكون قريبًا من الغواصات الألمانية التي تحمل المال والذخيرة للعرب، وإنما صنعت ألمانيا ذلك نكاية في فرنسا وإيطاليا أثناء الحرب العالمية الأولى.

وجاهد الفرنسيين في تشاد في منطقة «غرو» وغيرها، واتصل بسلطان واداي داود مُرة سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م وأقنعه بسحب اعترافه بالحماية الفرنسية على «كانم» و«باقومي»، واستجاب السلطان وسحب الاعتراف.

ولما دانت تشاد للحكم الفرنسي بعد ذلك بست سنوات انتقمت من الشريف بأن هدمت زوايا الإرشاد السنوسية، وألغت وجودها في البلاد التشادية تمامًا.

وبعد نزول الإيطاليين إلى ليبيا بسنتين هزمت فرنسا القوات السنوسية في «غرو» بتشاد، لكن الجهاد ضد فرنسا لم يتوقف، ولم تستطع فرنسا أن توقفه في تشاد وما حولها إلا بعد سنوات طويلة.

وقاتل السنوسيون أتباعُ السيد أحمد الشريف فرنسا في النيجر وفي جنوب الجزائر سنوات عديدة.

جهاده ضد إيطاليا:

لما غزت إيطاليا الصليبية ليبيا جمع السيد أحمد زعماء السنوسية والقبائل وشاورهم في الجهاد ضد الإيطاليين، فرأى منهم بعض الفتور فشجعهم بقوله: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاي هذه»، وقال لهم مرة أخرى: «إن هذا أمر لا يقبل المشاورة».

ولما نزل الإيطاليون على الساحل الليبي كانوا مدفوعين برغبة صليبية في احتلال ليبيا يتنازعها طمع في ثروات البلد، ومزاحمة الفرنسيين والإنجليز على الغنائم المنهوبة من الدول العربية التي ابتليت بالاحتلال والخراب، وكانت الدولة العثمانية آنذاك ضعيفة لا تستطيع عمل كبير شيء لليبيين؛ لذلك كانت ترغب في الصلح مع إيطاليا، فتحرك أحمد الشريف وأرسل وفدًا من زعماء السنوسية وكبار الأهالي وعدده أربعون شخصًا إلى دَرْنَة، وهي مدينة على الساحل الليبي، لمقابلة الوالي العثماني أنور بك - الذي صار وزيرًا للحربية بعد ذلك في الدولة العثمانية ولقبه أنور باشا - وسلمه الوفد رسالة من السيد أحمد جاء فيها: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو».

فأرسل الوالي أنور باشا عزيزًا المصري - الذي كان ممثلاً للدولة العثمانية في ليبيا ومديرًا للعمليات العسكرية فيها - إلى الجغبوب مركز القيادة السنوسية، وطرح مسألة الصلح على السيد أحمد الشريف، فكان رده حازمًا: «والله لا أسلمهم من أرضنا طراحة حصان».

لكن الدولة العثمانية أرغمت - بعد أن هاجمت إيطاليا أراضيها بالطائرات والمدافع - على توقيع معاهدة (لوزان) مع إيطاليا في أكتوبر سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م وتنازلت

فيها عن ليبيا، فعمد السيد أحمد إلى تكوين حكومة سنوسية وطنية لتتولى أمر البلاد بعد انسحاب العثمانيين منها، وأصدر السلطان العثماني فرمانًا عين فيه أحمد الشريف رئيسًا للحكومة، وأعلن السلطان استقلال الولايات الثلاثة برقة وفزان وطرابلس لحفظ ماء وجهها أمام العالم.

وكان شعار تلك الحكومة: «الجنة تحت ظلال السيوف».

لما انسحب الضباط العثمانيون ترك أنور بك الأسلحة العثمانية للمجاهدين، وأوكلت مهمة القيادة إلى الضابط عزيز المصري، لكنه اتُهم من المجاهدين بالاتصال سرًا بإيطاليا فغضب وانسحب بقواته وأسلحته إلى مصر، فوقف له المجاهدون في طريقه ورفضوا أن يذهب بالسلاح، فاصطدم بهم في معركة، لكن السيد أحمد الشريف أرسل الشهيد بإذن الله تعالى عمر المختار إلى مكان المناوشات، وفاوض عزيز المصري، وفي النهاية سمح له بالخروج مع الأسلحة!! ويبدو أنه وجد أن هذا الحل يحقن دماء المسلمين.

وقرر السيد أحمد أن ينقل عاصمته الكفرة الموغلة بعدًا في الصحراء الجنوبية إلى الجغبوب شمالاً ليكون قريبًا من مناطق الجهاد، وفي الجغبوب اجتمع القواد عند الشريف أحمد ليوزعوا الجبهات، فكُلف أنور بك بقيادة درنة، وكُلف الهالك اللعين أتاتورك بجبهة طبرق، وبنغازي أوكلت إلى الضابط عزيز المصري، واشتعلت الجبهات ضد الغزاة الصليبيين، وأنشأ السيد أحمد عدة معسكرات في عدة مدن ليبية، وزودها بالسلاح والعتاد لمقاومة الإيطاليين.

ثم نادى السيد أحمد الشريف بالجهاد في منشور أرسله إلى مشايخ الزوايا والقبائل وعامة الناس في المناطق الليبية كافة، وطلب من كل شخص يتروح سنه بين الرابعة عشرة والخامسة والستين أن يتزود بالمؤونة والسلاح ويسارع إلى الجهاد، وهذا كله كان في الجبهة الشرقية من الحدود المصرية إلى ما بعد بنغازي وما يتصل بها جنوبًا في الصحراء الكبرى، أما الجهة الغربية من طرابلس وما حولها فقد كان لها مجاهدوها، لكن السيد أحمد أرسل مجموعة من الرجال والسلاح إلى العزيزية بالقرب من طرابلس لدعم المجاهدين هنالك.

اجتمع للسيد أحمد سبعة آلاف مجاهد، فانتقل بهم إلى منطقة المساعد المجاورة للحدود المصرية، ودربهم حتى أصبحوا مثل الجيوش النظامية، وطلب من أخيه صفي الدين السنوسي أن يقود منطقة غرب برقة (بنغازي) وأن يتصل بمجاهدي طرابلس مثل رمضان السويحلي، وأحمد بك سيف النصر، وغيرهما لإحكام الجهاد ضد الإيطاليين.

ووقف السيد أحمد وقفة المجاهد العظيم ضد إيطاليا، ويصور هذا أحسن تصوير شكيب أرسلان بقوله:

«لولا السيد أحمد الشريف رحمه الله لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما، وإننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الأوربية عن الحملة الإيطالية... إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر وتستكمل هذا الفتح في مدة خمسة عشر يومًا، وقال أشدهم تشاؤمًا، وأقلهم تخيلاً، وأبصرهم بأمور الشرق وهو (اللورد كتشنر) المشهور: إن هذا الفتح الذي يستسهله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل، فليتأمل أولو الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عامًا، ورزأت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح، هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد السيد السند، نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئًا، ولم تشرب هنيئًا، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حَسَك - أي: شوك - لا يزول في الأحقاب ولا في القرون».

وقد أكد السلطان عبد الحميد هذا المعنى - بعد عزله - إذ قال لجريدة ألمانية:

«إن الإيطاليين سيجدون مقاومة عنيفة من قبل السنوسيين وأتباعهم، وستكون خسائرهم فادحة، وحساباتهم خاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قد أمّنت لهم ما يكفيهم من البنادق والمدافع لكي يقووا على المقاومة والدفاع عن وطنهم».

قام السيد أحمد بجولة طويلة في ربوع ليبيا، زار فيها الزوايا والقبائل، وزار المجاهدين في أماكنهم، وشارك في المعارك، وحث المجاهدين على الصبر والتحمل والقيام بأعباء الجهاد.

وقام السيد أحمد بجولات في إقليم برقة، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية بالمعسكرات، وشارك في المعارك بنفسه، ولقى فيها متاعب ومشاق، وأضناه السهر والجوع والعطش لكن كل ذلك لم يزده إلا بسمة في الثغر، وبهجة في الخاطر، كما وصفه بعض من كان معه في الجهاد، وكاد مرةً يُؤسر لكن الله تعالى نجاه.

وأرادت إيطاليا بعد اشتداد المعارك أن تبرم اتفاقًا مع السيد أحمد الشريف تترك له به إمارة البلاد الداخلية وتبقي هي بالموانئ والثغور الساحلية، لكنه كان عالمًا أن إيطاليا مثلها مثل سائر الدول الاستخرابية لا تفي بعهد ولا تصدق في قول.

وعرضت إيطاليا أيضًا بوساطة الخديو عباس حلمي ملك مصر على الشريف إمارة محدودة مقابل الرضا بالإيطاليين فرفض، وقال:

«إنني أقسم أمام جميع المجاهدين إني لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير ما دام معي نفر واحد من المجاهدين، وإذا خانني الجميع وسلموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدي الأعلى شاكيًا إلى الله خيانة الخونة، مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين».

بعث السيد أحمد برسائل إلى زعماء الدول العربية والإسلامية يدعوهم للوقوف مع ليبيا فسارع عارف بك والي البصرة، وحبيب الله خان ملك الأفغان، ونشأت بك أحد كبار ساسة الترك، وعلى بن عبدالقادر الجزائري، وعمر طوسون من مصر لدعم ليبيا بما استطاعوه آنذاك، ونظم مسلمو الهند ومدغشقر وجزيرة موريشيوس حملات للتبرع لليبيا.

وزبدة الكلام أن السيد الشريف عمل كل ما في وسعه ليجاهد إيطاليا لكن الأمر كان أكبر منه، وسأبين في الحلقة القادمة - إن شاء الله تعالى - ما انتهى إليه أمر جهاده ضد الإيطاليين.

●●●

المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ٣/٢

ذكرت في الحلقة الماضية جهاد السيد أحمد الشريف في ليبيا وتشاد ضد إيطاليا، وفرنسا، وفي هذه الحلقة سأبين جوانب جهاده خارج ليبيا في مصر، وما حدث بعد ذلك من اضطراره للخروج من ليبيا، رحمه الله تعالى.

لم يكتف السيد أحمد بالجهاد في ليبيا ضد الفرنسيين والإيطاليين لكنه جاهد الإنجليز في مَصر؛ وذلك أن الدولة العثمانية أرسلت طلبًا على لسان أنور باشا وزير الحربية - الذي كان من قبل مسؤولاً عسكريًا في ليبيا كما ذكرت في الحلقة الماضية - تطلب فيه من السيد أحمد إعلان الحرب على بريطانيا ودخول مصر من الجهة الغربية، وكان ذلك تنفيذًا لاتفاق بين الدولة العثمانية وألمانيا، وأرسل أنور باشا الطلب مع أخيه نوري وعسكري عراقي اسمه جعفر العسكري، وكلاهما من كبار قادة تنظيم عسكري عثماني اسمه «تشكيلات مخصوصة»، فرفض السيد أحمد الطلب لأنه كان يرجو أن تنصره بريطانيا في حربه مع إيطاليا، ولأن بريطانيا كانت تسيطر على مصر التي كانت المعبر الوحيد للمؤن والسلاح إلى السنوسي، وباقي المعابر محتلة من إيطاليا وفرنسا، وكان إدريس بن المهدي السنوسي - الملك إدريس فيما بعد - يطالب بطرد من تبقى من الضباط العثمانيين لكسب تعاطف البريطانيين مع ليبيا في مواجهة صلف إيطاليا وغزوها.

وكلف الجنرال البريطاني (ماكسويل) وفدًا بإبلاغ السيد أن حكومة ملكة بريطانيا تعده أنها ستساعده ضد إيطاليا، وتحذره من الضباط العثمانيين الذين بجواره، لكن الضباط العثمانيين الذين كانوا مع السيد ضغطوا عليه، بل قد قطعوا عليه الطريق بأن شنت مجموعة عسكرية تركية من تنظيم «تشكيلات مخصوصة» هجمات على الإنجليز في السلوم، فغضب من هذا لكنه لم يجد في النهاية إلا دخول الحرب ضد إنجلترا بعد أن ألجأه الضباط العثمانيون إلجاءً لدخول الحرب، ودخل السنوسي مصر، وقاتل الإنجليز حتى هزمهم في السلوم، ولاحقهم حتى منطقة سيدى بَرّاني - وسميت بذلك

نسبة إلى البراني الساعدي أحد مجاهدي السنوسية الذي أنشأ زاوية في تلك المنطقة - حيث التحق بقوات محمد صالح حرب، وكان ضابطًا مصريًا تابعًا للقوات الإنجليزية لكنه تنبه واستيقظ وانضم إلى السيد أحمد الشريف، لكن بريطانيا تمكنت من صد الهجوم في معركة العواقير سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م.

وواصل السيد أحمد جهاده في الواحات المصرية فاحتل عددًا منها، واتصل بمشايخ الصعيد في أسيوط والفيوم، واتصل بسلطان دارفور علي دينار لتكوين جبهة ضد الإنجليز، لكن مشايخ العرب لم يستجيبوا، واستجاب السلطان علي دينار وثار على الإنجليز لكنه أخفق في ثورته تلك، وهنا وجد السيد أحمد الشريف أنه يقاتل الإنجليز في الواحات ببنادق قديمة على ظهور الخيل في معركة غير متكافئة، فالإنجليز يملكون الطائرات والمدفعية، وعانى من انقطاع الطعام فاضطر للتراجع والانسحاب.

وكانت هذه المعركة سببًا لخروج السيد أحمد من مصر، وذلك أنه اتجه بعد المعركة إلى الجغبوب، فهدده الإنجليز إن بقي فيها أن يضربوه بالطائرات ويدمروا قبر جده مؤسس السنوسية محمد بن علي السنوسي، وإنما صنع الإنجليز ذلك لتخوفهم من بقاء السيد أحمد قريبًا من الحدود المصرية، فلم يرَ بدًا من الخروج من الجغبوب فاتجه إلى جالو، ثم زلّة، فسُوكنة ثم هُون، ثم انتقل إلى ميناء العقيلة في الشمال.

وأقفل الإنجليز حدود مصر فلم تعد الميرة تأتي منها، وكان الإيطاليون قد استولوا على الموانئ، فلم يعد السيد أحمد يجد وسيلة لتدبير المؤونة لشعبه، ومات كثير من جنده بسبب المجاعة، وفاتحه ابن عمه إدريس بن المهدي -الملك إدريس فيما بعد- بحقيقة المجاعة والوضع الصعب الذي يواجه الناس لا سيما في برقة التي كان وكيلاً للسيد عليها، فأذن السيد لإدريس بالتفاوض مع الإنجليز والإيطاليين لفتح الحدود والموانئ، فعقدت اتفاقية فُرض فيها على السيد أحمد الشريف التنحي عن الحكم، وتشكلت الحكومة السنوسية الثانية برئاسة إدريس، ولم يجد السيد أحمد الشريف إلا أن يخرج من ليبيا إلى إستانبول ليدبر أمر ليبيا، واتصل بالسلطان وحيد فأذن له بالمجيء، فاستقل في سنة ١٣٣٦هـ/ سبتمبر ١٩١٨م غواصة ألمانية من مرسى العقيلة

إلى النمسا ومنها اتجه إلى إستانبول؛ فاستقبله أنور باشا وكبار رجال الدولة استقبالاً حافلاً.

ومن لطائف ما جرى له في ركوب هذه الغواصة أنه سأل الضباط الألمان: هل في ركوب الغواصة من خطر؟ فأخبروه أن الأمر لا يخلو من الخطر، لكنه مضى في ركوبها اعتماداً على الله تعالى ثم على رؤية رآها، فقد رأى شيخه أحمد الريفي في المنام فقال له: الشيء الفلاني ستأخذه من (بولا)، فسأل أحد الضباط: هل يوجد محل اسمه (بولا)؟ فقال له: نعم، إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه (بولا)، فاعتقد أنه آمن في قصده النمسا، وقد تعطلت الغواصة في مدخل يابسة أوربا وتوقفت محركاتها، وخاف قباطنتها وبحارتها خوفًا شديداً لكن السيد أحمد الشريف كان مطمئنًا مستغرقًا في صلاته ودعائه، فأخبروه الخبر فقام معهم إلى لوحة التحكم بالمحركات فأداروها فدرات بفضل الله تعالى، فسُرّ الجميع بما جرى.

واستقبله السلطان في مسجد أبي أيوب الأنصاري، واتفق مع السلطان ووزير الحربية أنور باشا على استمرار الجهاد في ليبيا، لكن الحكومة سقطت، ونُحي أنور باشا، فلم ينجح الاتفاق.

وعقب هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى تولى الكماليون الحكم بقيادة الهالك مصطفى كمال أتاتورك، ونُحيت جمعية الاتحاد والترقي عن الحكم، وغزا اليونان تركيا، وقاد الهالك مصطفى كمال الجيوش، وظهر بلباس الإسلام، وأمر بإقامة الصلاة وإلغاء الجمارك ودور البغاء؛ فاغتر بحاله السيد أحمد الشريف وأعلن مساندته له، وبعث له الشيخ محمد عبدالله الزوي ومعه مصحف وسيف، ودعاه للثبات وإبقاء الخلافة، ووقف السيد معه خاصة أن مصطفى كمال كان يخوض حرباً ضد اليونان آنذاك، وساهم السيد أحمد في رفع معنويات الأتراك، ودار على بعض المدن التركية يأمر الناس بالوقوف مع أتاتورك، وأرسل إلى الأكراد رسائل تتضمن المعنى نفسه، وكانت صورة لأحمد الشريف بجوار صورة أتاتورك تطبع في الرسائل الموجهة إلى الأكراد ومعهما صورة متخيلة لصلاح الدين لإلهاب مشاعر الأكراد

وكسب تأييدهم لأتاتورك، وهدأ السيد أحمد الأكراد، وطلب منهم الوقوف مع الأتراك ضد الغزاة، ثم بعد انتصار الأتراك رسخ مصطفى كمال أقدامه في تركيا.

أما السلطان وحيد خان فقد كان يحذر السيد من غدر أتاتورك، لكن السيد أحمد لم يكن يستجيب لتحذير السلطان، لفرط ثقته في الغادر الهالك الذي تصور بصورة المسلم التقي النقي!!

وأرسل إليه خالد درويش باشا رسالة محذراً له من الغادر اللئيم، قال له فيها:

«يا مولانا؛ يا خادم الإسلام؛ يا فرع الدوحة النبوية المباركة؛ إياك أن تغتر بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه، فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله، ودينه هواه، ولو تمكن لأضر الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت عليّ جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها، ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين، آمين»، لكن للأسف لم يستجب السيد أحمد الشريف لهذه النصيحة وغيرها، وذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وعرض عليه مصطفى كمال منصب نيابة الخليفة، فاعتذر إليه.

وبعد الحرب غدر أتاتورك فعلاً بالسيد أحمد الشريف، ذلك أن مصطفى كمال بدأ في حربه للإسلام وتغييره للشريعة، فغضب السيد وقال له: «إننا والمسلمين لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي»، وطلب منه إعادة النظر في صنيعه، فلم يَرُق هذا الكلام لمصطفى كمال وعدّه تدخلاً في سياسته الشيطانية، وبدأ يضايق السيد أحمد، وفرض عليه رقابة لصيقة، وسحب حراسته من الضباط والجنود، وأوقف المصروف الذي كان يصرف له، وعملوا له مكيدة بأن أرسلوا له شخصاً ادعى أنه طالب علم فطلب منه تزكية لحفيد السلطان عبدالحميد الذي كان مقيماً في بيروت ليعينه في مهمته، وألح عليه حتى خجل منه السيد وأعطاه ما يريد، فوصل الكتاب إلى مصطفى كمال، فجمع مجلس الحكومة وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا: هذه خيانة عظيمة للدولة؛

وذلك لأن الدولة قطعت كل صلة لها بالدين وبالخلفاء خاصة السلطان عبدالحميد وكل ما يمت إليه بصلة، وقرروا عقب هذه المكيدة إبعاد السيد أحمد عن تركيا في مدة لا تتجاوز عشرة أيام أو إلزامه بالإقامة الجبرية، فاختار السيد الخروج.

وتوجه السيد أحمد الشريف إلى دمشق، واستقبله سعيد الجزائري حفيد الأمير عبدالقادر وأعيان الشام الذين فرحوا به واحتفلوا بمقدمه، لكن اضطر للخروج من دمشق بعد أن قرر الفرنسيون إبعاده منها، فخرج إلى القدس، وقابل المجاهد أمين الحسيني فيها.

ثم إن الإنجليز أبعدوه من القدس، فاتجه إلى طرطوس في الشام، وهناك عرض عليه الإنجليز ملك العراق، لكن الملك فيصل بن الحسين سبقه إليها لكثرة أتباعه آنذاك، ولقد عينه مجلس المبعوثان العثماني (مجلس الأمة) ملكًا على العراق سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، لكن القدر لم يساعده.

وأراد بعض المسلمين - ومنهم مسلمو الهند - المناداة بأحمد الشريف خليفة بعد إسقاط الهالك الأثيم مصطفى كمال الخلافة في تركيا، وقد فُضل على الملك فؤاد المصري والشريف حسين شريف مكة فقد كان كلاهما يتمنى الخلافة لنفسه، وكذلك حاول ملك الأفغان أن يظفر بالخلافة، لكن الأمر لم يتم لأحد منهم، وبقيت بلاد الإسلام إلى الآن بدون خليفة!!

وطلب منه الفرنسيون مغادرة مناطق نفوذهم مرة أخرى، فطلب السيد أحمد من الملك عبدالعزيز الإقامة في الحجاز، فوافق الملك، فاتجه السيد أحمد إلى مكة المكرمة، ثم إلى المدينة النبوية المنورة.

واتخذ من مقامه في الحجاز من موسم الحج وسيلة للاتصال بالليبيين من قادة الجهاد، ولجلب الدعم من المسلمين القادمين للحج.

وعمل في مدة إقامته في الحجاز أعمالاً جليلة، منها:

- استطاع أن يدعم الهدنة بين الملك عبدالعزيز وإمام اليمن يحيى، ونجح في إقناع الإمامين بتوقيع الاتفاقية بينهما.

- وأصلح بين قبيلتي شمر وعنزة إثر خلاف وصراع، وعقد صلحًا بينهما.

والعجيب أن السلطات الإيطالية عرضت عليه العودة إلى ليبيا والتفاوض فأبى السيد إلا بعد أن تفاتح إيطاليا إدريس بهذا الشأن وتفاوضه لإثبات صدقها، وبعث السيد أحمد المهتدي النمساوي محمد أسد - الذي كان يهوديًا فأسلم - إلى برقة ليقابل عمر المختار وليطلب منه مغادرة البلاد خوفًا عليه، لكن عمر المختار رفض إلا أن يجاهد إلى النهاية، وبعد المقابلة بمدة يسيرة أسر عمر المختار وأعدم، رحمه الله تعالى وتقبله في الشهداء، فأرسل السيد أحمد رسالة إلى ليبيا يُعين بها يوسف بورحيل قائدًا عامًا لحركة الجهاد في ليبيا، وشدد على مواصلة الجهاد وقرب النصر.

وزار السيد أحمد الشريف صبيا عاصمة الأدارسة وبلاد عسير، وهي تقع جنوب المملكة اليوم، ووجد أن أميرها هو علي بن محمد بن علي، وكان عمره آنذاك ١٨ عامًا.

وقد تولى الإمارة بعد وفاة والده السيد محمد بن علي الإدريسي سنة ١٣٤١هـ، وجده لا يصلح للإمارة، وأن الأصلح لها هو عمه الحسن بن علي الإدريسي الذي انصرف عنه وزراء الأدارسة لقوته وعينوا ابن أخيه لضعفه، وكان الأمير قد اتخذ من جيزان عاصمة له، فارتحل إليه السيد أحمد الشريف ووعظه ونصحه أن يترك الظلم والملاذ الحرام، لكن لم يجد عنده استجابة للنصح، فعاد إلى صبيا وتمكن من مقابلة الأمير الحسن بن علي، وطلب منه أن يتولى الإمارة فتردد، لكن السيد أحمد الشريف شجعه وقال له: «رقبتي هذه قبل رقبتك»، فتشجع وأرسل إلى مشايخ صبيا والمخلاف السليماني وأخبرهم برغبة السيد أحمد الشريف، ففرحوا وبايعوا السيد الحسن بن علي تلك الليلة، وانصرف الناس عن الأمير علي وتركه أخلص الناس له، وانصرف عنه جيشه وبايع الحسن.

ثم إن الحسن استشار السيد أحمد الشريف مع من يميل: إلى إمام اليمن أم إلى الملك عبدالعزيز، فأشار عليه السيد أحمد أن يكون مع الملك عبدالعزيز، فاستجاب له وعقد معاهدة مع الملك، وأشهد عليها السيد أحمد الشريف السنوسي.

وفاته:

توفي السيد أحمد الشريف - بعد جهاد طويل - في مدينة رسول الله ﷺ سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م، ودفن في بقيع الغرقد بين الإمام مالك وإبراهيم ابن سيدنا رسول الله ﷺورضي عنه.

وقام بدفنه الشيخ عبدالمالك الطرابلسي نزيل الحجاز رحمهما الله تعالى، ومشى في جنازته أمير المدينة المنورة، وقيل: لم ير أهل المدينة مثل جنازته.

وصُلي عليه صلاة الغائب في مصر وفلسطين وعدد كبير من أقطار الإسلام، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وأعلنت إيطاليا أنه بموت أحمد الشريف ماتت جميع مخاوفنا في إفريقيا!!

وفي الحلقة القادمة - إن شاء الله تعالى - سأذكر صفاته، ومناصبه، وما قيل فيه.

●●●

المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ٣/٣

ذكرت في الحلقتين الماضيتين بعض أحوال المجاهد الكبير السيد أحمد الشريف السنوسي داخل ليبيا وخارجها إلى أن توفاه الله تعالى، وفي هذه الحلقة أذكر بعض صفاته وما قيل فيه.

صفات السيد:

من أحسن من وصفه أمير البيان شكيب أرسلان فقد قال فيه:

«قد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع، وحُق لي والله أن أُنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح طيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسنَ مما قد رأى بصري

رأيت في الرجل حبرًا جليلاً، وسيدًا غطريفًا - أي: حسنًا- وأستاذًا كبيرًا، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالةَ قدر، وسراوة - أي: مروءة وفضل - حال، ورجاحة عقل، وسجاحة - أي: دماثة ولين - خلق، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة والتلاوة، والتهجد. . . وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي والسيد محمد المهدي وغيرهما من الأولياء والصالحين، وإذا تكلم في العلم قال قولاً سديدًا. . . وقد لاحظت منه صبرًا قلّ أن يوجد في غيره من الرجال، وعزمًا شديدًا تلوح سيماؤه على وجهه. . . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس - يعني ليبيا مع الإيطاليين - يشهد كثيرًا من الوقائع بنفسه، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال، وكثيرًا ما كان يغامر نفسه، ولا يقتدي بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ألا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة».

وكانت صلته بالله حسنة، وقد ذكرت في الحلقة الماضية قصة الغواصة الألمانية، وكذلك من الدلائل على حسن تلك الصلة أنه في إحدى معاركه ضد الإنجليز عدم جيشه الماء، فأمر بصلاة الاستسقاء، فأنزل الله تعالى المطر، وظل ينهمر يومين كاملين، ولله الحمد والمنة.

وقد وصف الضابط العراقي العثماني جعفر العسكري الذي كان عضوًا في تنظيم عسكري يُدعى «تشكيلات مخصوصة»، وقد بينت حاله من قبل، وصف معسكر المجاهدين حول السيد أحمد الشريف، ووصف كتيبة خاضعة للقيادة المباشرة للسيد أحمد، فكان مما قاله في هذه الكتيبة الخاصة:

«كانوا أربعمائة من طلبة العلم وحفظة القرآن، وكانوا مسلحين بأحدث الأسلحة، ووظيفتهم المحافظة على حياة السنوسي، وإقامة الحرس في أطراف الزاوية السنوسية، وكانوا يرتلون القرآن بصوت جَهْوَري مدة الحراسة، ولم يخل ذلك من التأثير العظيم في كل من يشهد ذلك الخشوع والإجلال».

وقال الشيخ مصطفى المصراتي - فيما نقله عنه الأستاذ إبراهيم صهد - وكان أحد أفراد هذا المعسكر:

«كنا في معية السيد أحمد نتبادل نوبات الحراسة، وكنا نقضي فترة الحراسة بتلاوة القرآن الكريم، وعندما كانت تتقضى نوبة أحدنا فإنه يسلم لمن يليه شيئين: سلاح الحراسة، والآية التي وقف عندها، فيتابع المناوب الجديد القراءة من حيث وقف سابقه، وهكذا كان لكل نقطة حراسة ختمتها المنفصلة، والله وحده يعلم كم مرة ختمنا القرآن».

وقال أيضًا:

«كنت مناوبًا في إحدى ليالي الجبل الأخضر - منطقة قرب بنغازي - الشاتية، وكان الجو شديد البرودة، وكانت أمطار غزيرة قد هطلت، فأحالت المنطقة إلى بِرك وأوحال.

وكنت قد بلغت في تلاوتي آية سجدة، فنظرت حولي: الأرض موحلة، والبِرك

في كل مكان، والبرد شديد، فخملت نفسي وتكاسلت فلم أتوقف للسجود وواصلت التلاوة، فإذا بصوت السيد أحمد يناديني من داخل الخيمة: اسجد أيها القارئ، فسجدت، العجيب أنني لم أجد في سجودي أثرًا للوحل أو للبلل، فقد قيض الله لي أرضًا جافة سجدت على أديمها، وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر تحدث إلينا السيد أحمد عن حكم سجود التلاوة، ووجوب طاعة الله في المنشط والمكره دون أن يذكر شيئًا عن سبب موعظته، وقد اكتشفنا بعدئذ أن السيد أحمد كان يتابع قراءتنا، ويصحح للمخطئ أو يفتح على الناسي، فسألناه: كيف تبقى مستيقظًا دون أن تنام؟ فقال لنا: كيف أنام والقرآن يتلى على مسمعي؟».

مؤلفاته:

ألف كتابًا كبيرًا في «**تاريخ السادة السنوسية وأخبار أتباعهم**».

وله كتاب «**الشموس البرهانية النورانية العرفانية**».

وألف كتابًا سماه «**السراج الوهاج في رحلة السيد السنوسي من الجغبوب إلى التاج**». والتاج زاوية في الكُفْرة، وقد دون في هذا الكتاب رحلاته مع عمه المهدي السنوسي زعيم الحركة السنوسية الثاني من الجغبوب إلى الكفرة ثم إلى غرو في تشاد.

وله ثَبَت - أي: فهرست - اسمه «**الفيوضات الربانية**».

وله كتاب اسمه «**الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية**».

وقد أجاز الكثيرين إجازة خاصة وعامة في الرواية وغيرها، في الحجاز والشام وليبيا وغيرها، رحمه الله تعالى.

وله كتاب «**المساعد في أحكام المجاهد**».

مناصبه:

بالإضافة إلى زعامة الحركة السنوسية ورئاسة الحكومة الليبية الأولى عينه السلطان العثماني سنة ١٩١٥م نائبًا له على إفريقيا، ومنحه منصب وزير، ولقب باشا، فصار بإمكان السيد أحمد منح الألقاب العلية لقادة المجاهدين.

ما قيل في السيد:

قال فيه أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه الجليل «حاضر العالم الإسلامي»:

«اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل، وتجرده من المآرب الشخصية، وعزوفه عن حظوظ الدنيا، وانصراف همه كله إلى الذبّ عن بيضة الإسلام بدون غرض سوى مرضاة الله وحفظ استقلال المسلمين».

وقال فيه أمير البيان شكيب أرسلان -أيضًا- قولاً عظيمًا معبرًا بقوة عن حياة المجاهد العظيم أحمد الشريف:

«إن هذا الفقيد العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح، وأيام الغزوات والفتوحات العُمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين».

وقال فيه شكيب أيضًا:

«كان يقضي سائر الليل في العبادة والتهجد، وأكثر أحاديثه في سيرَ رجال الله، وكان كثير الاهتمام بالجهاد، والتدريب على فنون الطراد، لأنه تلميذَ مدرسة أعطت لمبدأ الجهاد في سبيل الله المقام الأول من اهتماماتها يريد المدرسة السنوسية».

ولقد وصف طول قيامه في تراويح رمضان، وكيف كان يصلي كل يوم بأصحابه بخمس القرآن حتى أنه لم يعد يستطيع أن يجاريه.

وقال فيه النمساوي محمد أسد الذي اهتدى إلى الإسلام بعد أن كان يهوديًا واسمه (ليوبولد فايس)، في كتابه «الطريق إلى الإسلام»:

«ليس في الأمة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد، ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة من كل غاية في سبيل مثل أعلى كما فعل هو، ولقد وقف حياته كلها - عالمًا ومحاربًا - على بعث المجتمع الإسلامي بعثًا روحيّاً، وعلى نضاله في سبيل استقلاله السياسي».

وقال فيه محمد أسد أيضًا:

«لم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئًا عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في

قضية عادلة مُقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك هو ما كان يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله؛ إذ إنني لم أستطع أن أرى في العالم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثال: الحركة السنوسية التي تحارب الآن معركتها الأخيرة في سبيل الحياة»، وكلامه هذا رائع.

وقال فيه محمد أسد - أيضًا- رحمهما الله تعالى:

«كان يحمل اسمًا مشهورًا في طوال العالم الإسلامي وعرضه: السيد أحمد الشريف إمام السنوسية، ما من اسم آخر أقضّ مضاجع الحكام الاستعماريين (الاستخرابيين) ذلك العدد الكبير من الليالي في شمالي أفريقيا حتى اسم عبدالقادر الجزائري في القرن التاسع عشر أو عبدالكريم الريفي (الخطابي) الذي كان شوكة قوية في جانب الفرنسيين، ذانك الاسمان مهما كانا خالدين عند المسلمين كافة لم يكن لهما إلا معنى سياسي، في حين أن السيد أحمد طريقته كانت قوة روحية عظيمة».

نعم إن هذا الذي قاله محمد أسد رحمه الله تعالى هو سر صمود السيد أحمد الشريف وجهاده الطويل أكثر من أربعين سنة، رحمه الله تعالى.

وقال فيه الشيخ الطاهر الزاوي العالم الليبي المعروف:

«السيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة؛ فعفّت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله فتولى توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه».

وختامًا أقول:

لقد كان السيد أحمد الشريف السنوسي آية من آيات الله تعالى في الجهاد، فقد جاهد ضد ثلاث دول كبرى: فرنسا وإيطاليا وانجلترا، ولم يكن له نصير أو مساعد إلا قليلاً، ولو سوعد الرجل لتغير وجه التاريخ، لكن أنى ذلك وديار الإسلام كلها - تقريبًا - كانت ترزح تحت احتلال بغيض طويل، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وربما اختلفت الأنظار في تقويم صنيع السيد أحمد الشريف وجهاده الطويل، لكن الكلمة اتفقت على عظم وجلال ما قام به، رحمه الله تعالى.